الكتب

سبأ ومأرب

رحلة فى بلاد العربية السعيدة

تأليف الأستاذ السيد نزيه المؤيد العظم

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

لقد قصر الأواخر عن الأوائل تقصيرا معيبا فى وضع المدونات الجغرافية ووصف المسالك والممالك وصفا علميا مبنيا على ملاحظاتهم الخاصة وقائما على وجهة نظرهم ولا سيما وصف الأقطار التى يهمنا شأنها ولنا ارتباط بها خاص ؛ ومن هذه الأقطار التى تكاد تكون غفلا من الذكر فى مدوناتنا الحديثة القطر اليمانى أو العربية السعيدة حتى صرنا إذا أردنا أن نلم بشىء من أخبارها وشؤونها اضطررنا إلى مراجعة ما دونه السياح الغربيون عنها أو إلى مؤلفات كتابنا من أهل القرون الوسطى . لذلك يعد هذا السفر الذى وضعه الرحالة الأستاذ نزيه المؤيد العظم تحفة ثمينة قد سدت ثغرة عظيمة فى تاريخ نهضتنا الأدبية السياسية العلمية

والكتاب مكتوب بطريقة قصصية سهلة وبأسلوب سلس خال من التعقيد والتكلف يكاد من يقرأه يظن أن مؤلفه يحادثه وجها إلى وجه ولا سيما من عرف المؤلف معرفة شخصية وتعود سماع حديثه والطريقة التى يدلى حججه بها . وهو لم يبسط فيه أحوال اليمن بسطا حياديا مجردا بل يتحين الفرص ليدلى بآرائه الشخصية ونظرياته الدينية والاجتماعية ويشير من حين إلى آخر إلى أغراض الدول المستعمرة فى تلك الأرجاء

ومما استوقف نظرى كثيرا ملاحظة منه سبق لى أن تجرعت منها الصاب وأنا واقف على أسكلة عدن فى أوائل سنة ١٩١٦ ، فقد حدث يومئذ أننى كنت قادما من الهند إلى مصر وكانت معنا فى الباخرة سيدة انكليزية أرلندية ملمة ببعض الشئون السياسية فذكرت لها النهضة العربية وكيف أن العرب يعملون لإعادة مجدهم الغابر واستقلالهم المنشود ، فلما رست باخرتنا على عدن رأيت خليطا من الغوغاء بألبسة قذرة وأصوات منكرة وحركات همجية مزرية يتقدمون إلينا على زوارق كبيرة لنقل البضائع ، فصاح بعض الانجليز من على ظهر السفينة « عرب عرب » فجاءتنى السيدة الانكليزية مستفسرة بشىء من التعجب: « هل هؤلاء هم العرب الذين يغارون على مجدهم السابق واستقلالهم المنشود » ؟ فبينت لها خطأ التسمية من اطلاق اسم جزء خاص على كل عام وأن حفاة أرلنده - وكانت أرلندة يومئذ تتحفز للثورة - لبسوا كل الأرلنديين . قال الأستاذ نزيه فى ملاحظته « ومما يؤسف له أن أكثرية الوطنيين العرب - فى عدن - أصبحوا خداما للأجانب فلا يتعاطون من الأشغال إلا الدنيئة كالخدمة فى المنازل وصيد السمك والحمالة ومسح الأحذية ونقل البضائع وخصوصا الفحم والغاز من السفن التجارية إلى البر ؛ وكذلك فى مصر من الفرنجة والمتفرنجين من يطلق كلمة « عرب » على هذه الطبقة من الناس

وفى الكتاب ملاحظات قيمة عن الزراعة فى البلاد وخصب الأرض وخدمتها والطرق الابتدائية المستعملة فى استنباتها وهو يقول أن محصولات اليمن تشمل البن والتنباك والقطن ، وذكر لى أن جلالة الامام استحضر من مصر بزر (السكالاريدس) فنجح هناك نجاحا ظاهراً

ومن أغرب ما جاء فى هذا الكتاب مما يخالف المألوف ولا ندرى اه سيا أن تضع الحكومة المتوكلية مكسا أو رسما جمركيا اثنين ونصفا فى المائة على الصادرات ولا تضع شيئا على الواردات (ص ٣٧)

وان تعجب فعجب أن تكون اليمن وهى موطن أفخر ن لا تشرب القهوة المعمولة من ثمره وإنما تشرب مغلى قشره مما يذكرنى ببلاد النمسا فهى تصنع أفخر الطرابيش لا يلبسها النمسويون بل لتصديرها إلى بلاد الشرق . واليمنيون إذا أرادوا إكرام ضيوفهم بهذا المغلى سألوهم أتتقشرون أى أتريدون أن تشربوا القشر على قولنا أتتفكهون

وقد عرفنا قديماً ان نساء اليمن فى الارياف يلبسن القبعات القش ولكن المؤلف رآهن فى حفلة عرس سافرات « وبعضهن كن عاريات الا من مئزر بسيط ، وبعضهن كن لابسات اكاما قصيرة - ديكولتيه - وبعضهن وضعن على رؤوسهن حجابا أسود ، وبعضهن وضعن فوق هذا الحجاب قبعة مصنوعة من قش القمح أو الشعير ذات حجم كبير لترد أشعة شمس تهامة المحرقة وهى من صنعهن ، وقد علمتهن الحاجة التى هى أم الاختراع الا يتقيدن بعادة وقانون بل يلبسن ما يوافق محيطهن واحتياجهن »

ويخيل الى من يقرأ هذا الكتاب أن البلاد تحت نوع من الأحكام العرفية أو ان أهاليها فى مدرسة ليلية أو فى سجن اصلاحى لأن السير فى طرقاتها من بعد ساعة معينة من الليل محظور ، فقد جاء فى الصفحة ٤٩ « وفى هذه الساعة الرهيبة - يعنى بعد تناول العشاء - لا يسمع المرء فى بلاد اليمن من اقصاها الى أقصاها الا نداء الجنود فى ثكناتهم وقلاعهم

وحصونهم (واهتوكلاه) - على طريقة بادشاهم جوق باشاق الدولة العثمانية - وبعدئذ يضرب بوق النوم فيذهب جميع أهل المدن الى النوم ويصبح الخروج من المنازل الى الأزقة والشوارع محظوراً على الجميع عدا الجند.

واعجبني جد اعجاب الغاء الرق في بلاد اليمن ومنع الاتجار بالعبيد فلم يجد المؤلف لهذا الوضع أثرا في تلك الانحاء بل قال في الصفحة ٥ « ان الامام حفظه الله منع هذه التجارة منذ تولى الحكم ، وكان عنده عبد يدعى صمصام فاعتقه لوجه الله وزوجه من فتاة كانت في خدمته ووظفه في احدى الوظائف »

وكل كتاب عن اليمن لا يذكر النبات المخدر الذي يدعى (قاتا) لا يكون مستوفيا للشروط ، فالقات عند اليمنيين لا يقل شأنا عن الوسكي عند الانكليز والبوزه عند السودانيين ، وهو له مجالس خاصة ينهمك المجتمعون فيها بمضغه ، وأمام كل واحد منهم رزمة كبيرة منه والى جانبها إبريق من فخار ومبصقة من فضة ؛ أما الابريق فيستعملونه لغرغرة أفواههم من حين الى آخر ، وأما المبصقة فلطرح أوراق القات بعد مضغه . ويدوم هذا المجلس من بعد الغداء حتى المساء ، ويسمى هذا النبات بالانكليزية (كاثا أديوس) وفيه مادة مخدرة تؤثر في الأعصاب فيشعر من يمضغه براحة وبسط وانشراح

ثم ذكر الاستاذ نزيه أضراره فقال « انه يقلل من شهية الانسان للطعام ويزيد فيه الميل الى شرب الماء ويضر بالأسنان ويسودها ، وبالمعدة فيقلل من عصيرها وبالنسل فيضعفه . وبالرغم من جميع هذه المضار وبالرغم من علم أهل اليمن بها فهم يمتدحونه وينشدون القصائد في مزاياه ويستعملونه باجمعهم ماعدا صاحب الجلالة الامام يحيى فقد منعه طبيبه الخاص من استعماله منذ عدة سنوات ولا يزال جلالته ممتنعا عنه الى اليوم »

ومن دواعي الأسف ان يضيع اليمنيون ثروتهم وصحتهم في هذا المخدر الضار حتى ان الذي يشتغل منهم في نهاره كله يفرنك واحد يصرف معظمه على القات . ويغرس شجره كما يغرس التين في الأودية المرتفعة التي لا تتعرض لحرارة الشمس الحادة الا بضع ساعات في اليوم ، وهو أثمن نبات في اليمن على الاطلاق ؛ وتساوي الرزمة الصغيرة من أغصانه نحو ثلاثة فرنكات

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ما لحظناه من وجود إيطاليين موظفين في الحكومة المتوكلية من أطباء وغيرهم فالأطباء الموجودون هناك الآن من الطليان وقد أتوا الى اليمن عقب زيارة والى اسمرة السنيور غاسبريني اليها وعقد المعاهدة مع الامام وهم يتناولون رواتب تبلغ ستين جنيها شهريا للواحد منهم ويديرون مستشفى الحديدة ومستشفى صنعاء وكذلك التلغراف اللاسلكي في صنعاء فهو بيدهم ومن تأسيسهم بأمر الامام منذ بضعة أعوام .

وذكر حاخام اليهود الاكبر في صنعاء واسمه يحيى اسحق للمؤلف أنه كان لليهود مملكة عظيمة في اليمن إلى الشرق من صنعاء أسسها سليمان بن داود وربما كانت هذه المملكة في نجران وأن اليهود في صنعاء ذكوراً وأناثا يبلغون زهاء عشرين ألف نسمة لهم ١٥ مدرسة و ١٩ كنيسا وهم يمارسون شعائرهم الدينية كما يشتهون ويطبقون شريعتهم الموسوية كما يرغبون ويعلمون أبناءهم العبرية دون العربية . وعرف المؤلف أن للصهيونيين مخابرات طويلة عريضة مع صنعاء وأن لهم صناديق للاعانة في كل دار من دور اليهود في معظم مدن اليمن والاسرائيلي الذي يريد أن يتصدق بشيء مهما كان زهيداً يضعه في هذا الصندوق ، ورب الدار ليس مأذوناً بفتحه بل يفتحه وكيل الجمعية في كل شهر ويخرج مافيه ويرسله الى صندوق الجمعية الصهيونية في القدس واسمه صندوق الأمة ، قال المؤلف : « حبذا لو كان زعماء الحركة الوطنية في الشرق يقتدون باليهود ويأخذون هذا الدرس عنهم . »

هذه لمحة مستعجلة عن الجزء الأول من هذه الرحلة المباركة ولكن العمل الخطير والاكتشاف الأثري العظيم هو في الجزء الثاني حيث يدون المؤلف رحلته إلى بلاد سبأ وسد مأرب فيذكر كيف حصل على الاذن من جلالة الامام بالسفر الى تلك الانحاء المحفوفة بالمهالك والمخاطر ويذكر الجنود الذين ساروا لحمايته من التعدي مما لم يسبق له مثيل ولم يحصل عليه أحد قبله . وكانت بداءة هذه الرحلة الى مأرب في اليوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٩٣٦ إذ ترك صنعاء وسار مشرقاً فدخل في واد يدعى (وادي السر) ومنه سار إلى قرية (القمعة) فقرية (ل الوزير) فوادي (حريب) فصرواح فقرية تدعى محترجة وهي آخر قرية يسكنها اليهود في شرق صنعاء وهكذا حتى وصل إلى سد مأرب ، ووصف ما رأى في طريقه من آثار ومعادن ونباتات وأشجار فقال عن المعادن مثلا والحديد من جهتها انها كثيرة ومتنوعة ، ونقل الكتابة الحجرية الموجودة حول جدران قصر (صرواح) بخط يده وعرضها على من ترجمها له من المستشرقين الألمان ومن الاخصائيين المصريين في القاهرة وكان وصوله إلى مأرب في اليوم التاسع والعشرين من يناير سنة ١٩٣٧ بعد الظهر أي بقي على الطريق نحو أربعة أيام كان المسافة كلها بين صنعاء ومأرب ١٢٠ كيلو مترا ، ولما وصل الى مدينة مأرب هو وعامل الامام يحيى والجنود استقبلهم الاهلون بالطبول والأناشيد . وبعد ذلك نرى في الكتب صوراً ثمينة للسد وجدرانه القائمة وأبوابه الواسعة والخطوط الموجودة على أحجاره وصفاً دقيقاً لمجاري المياه وكيف تتجمع وتتوزع ومن أين تأتي ، والجنتان اللتان كانتا تشربان منه والأشجار الباقية من خط وسدر وائل مما ينطبق كل الانطباق على ماورد في القرآن الكريم

وقصارى القول ان هذه الجولة الأثرية في بلاد مجهولة عندنا هي ذات قيمة علمية من الطراز الأول يهنأ عليها الاستاذ نزيه المؤيد العظم ولا سيما أن بعض الأوربيين الذين وصلوا الى تلك الأرجاء لم يتمكنوا من رؤية جزء صغير مما رآه سائحنا العربي بالنظر الى المخاوف التي كانوا معرضين لها ؛ ونعد عمله بادرة من بوادر نهضتنا العلمية المباركة

عبد الرحمن شهبندر